

حول التنظيم والعمل الجماهيري

عبد العني بوسته السرايري

(عمر الفاطمي)

المسار 30 ابريل 1986 العدد 27

ما من شك في أن للعمل الجماهيري أهمية قصوى ، سواء في تعميق التواجد والتجدر النضاليين وسط الجماهير لتعميق احتكاك المناضلين مع هذه الأخيرة للرفع من مستوى وعيها وتكوينها ونضاليتها ، أو من حيث تمريس المناضلين أنفسهم وصقل وعيهم واغناء تجربتهم وتعميقها . فالعمل الجماهيري حلقة وصل هامة بين الحزب ومختلف الفئات والجماهير الشعبية ، حيث انه يمكن الحزب من تعميم وإشاعة أفكاره وأطروحاته من جهة ويمكنه من جهة ثانية من إرساء لبنات مفاهيم وممارسات جديدة في العلاقات داخل المجتمع قوامها الديمقراطية الحقبة والتنقيف والتنوير فكريا وسلوكيا . ان العمل الجماهيري بهذا المعنى، وكمدرسة حية للعمل الجماعي المنظم وللتعاقد السليم ، ليس عملا موسميا مرتبطا بمناسبات ظرفية أو تنفسا مؤقتا للعمل الحزبي في انتظار أوضاع أفضل وانفتاح آفاق أخرى ، بل يشكل توجهها قارا وصيغة ثابتة للتعاطي والعمل في صفوف الجماهير .

ويمكن أن نحدد العمل الجماهيري، في كونه العمل النضالي الذي يتم خوضه في مجال جماهيري معين (حي، كلية، مؤسسة ..) على أساس مشاكل ومحاور معينة تهتم قطاعا أو قطاعات محددة (تنشيط ثقافي، إرشاد اجتماعي، عمل نسوي...) غير أن العمل الجماهيري ومهما كان مجاله واسعا، فإنه يبقى جزئيا بالنسبة للمجتمع ككل. بطبيعة الحال هناك تفاوتات بين مجالات العمل الجماهيري ، فالعمل النقابي أوسع حجما وتأثيرا دون شك مع العمل الجمعي مثلا . ذلك أن العمل النقابي ينطلق من مطالب مجسدة وملموسة تمس قطاعات واسعة، كما يتوفر على وسائل ضغط ملموسة (إضرابات مظاهرات).

إن العمل الجماهيري ، بالتعريف ، في حاجة دائمة للتوسيع حتى يستحق صفته الجماهيرية في أي مجال كان سواء تعلق الأمر بنقابة أو جمعية ثقافية أو رياضية أو ناد للسينما .. ومن هنا يكتسب الطابع الجماهيري أهميته القصوى وإلا تحول إلى عمل نخبوي محدود التأثير .

1 - العمل الجماهيري كعمل نضالي هادف

إن العمل الجماهيري لا يمكن أن يكون إلا هادفا ، فتجميع فئة أو فئات معينة من الجماهير ليس هدفا في حد ذاته ولا يمكنه أن يكون كذلك . فأبسط عمل وأبسط مبادرة جماهيرية، تشكل في مجتمع كمجتمعنا موقفا سياسيا، انطلاقا من أن الحياد في ظل الصراع الطبقي المحتدم دوما، مسألة وهمية بل انه - أي الحياد - يشكل موقفا واضحا ومحددا في حد ذاته. فالعمل الجماهيري بكافة أشكاله الاجتماعية والثقافية .. إما أن يكون في خدمة الطبقات السائدة من خلال التضليل وتعميم التمييع، وإما أن يكون في خدمة الجماهير الشعبية في هذا الاتجاه الثاني. يستهدف العمل الجماهيري:

- الإجابة على أوضاع وحاجيات الجماهير في مختلف المجالات، وذلك من خلال توعية الجماهير بحقيقة أوضاعها ومشاكلها ودفعها لتنظيم وتعبئة نفسها بنفسها للتصدي لقضاياها والنضال من أجلها.

- تمريس الجماهير على أخذ مشاكلها بيدها وتحمل مسؤوليتها بنفسها لمواجهة هذه المشاكل . أي بتعبير آخر ، محاربة مفهوم الطبقات السائدة القائل بعدم نضج الجماهير وتكسير

احتكار الفهم والمعرفة ، أي تجسيد حق المواطنة وإعطائه مدلوله العملي بإبراز نضج الجماهير وقدرتها على تحمل مسؤوليتها وتسيير شؤونها .

– التعلم من الجماهير وتعليمها . إن التعلم من الجماهير يبقى ويجب أن يبقى هدفا قائما ودائما بالنسبة للمناضل، إذ أنه مهما كان مستوى وعيه وتكوينه فهو في حاجة مستمرة لصقل وعيه وتغذيته من خلال الاحتكاك بالجماهير والتعرف عن قرب ، على مشاكلها واهتماماتها . وبالدرجة نفسها، يشكل تكوين وتعليم الجماهير مهمة أساسية، لتدريبها على الأساليب التنظيمية للعمل وكيفية تسيير وتنظيم عملها وتسليحها بالرؤية والتصور الواضح للمشاكل وكيفية مواجهتها ومعالجتها.

مما سبق، يتضح أن العمل الجماهيري بالنسبة لأي تنظيم ثوري – أو يطمح ليكون كذلك – مجال حيوي وجد هام. فبقدر ما يسمح بنشر الوعي في صفوف الجماهير وتمرسها ، بقدر ما يصلق وعي المناضلين أنفسهم ويربطهم بواقع واهتمامات هاته الجماهير بشكل وثيق وأدق .

2- محددات مبدئية للعمل الجماهيري

تتحكم في العمل الجماهيري: مبادئ أربعة متداخلة ومتراصة جدليا فيما بينها:

– **الجماهيرية** : إذ أن غياب الطابع الجماهيري يجعل من هذا العمل عملا نخبويا معزولا وديم التاثير وسط الجماهير التي يريد خدمتها . والجماهيرية ليست مجرد مسألة كمية أو عددية ، بل هي أساسا مسألة نوعية ، إذ لا يكفي أن تكون الجمعية أو النقابة أو النادي .. متوفرة على قاعدة جماهيرية واسعة نسبيا ، بل يجب أولا وقبل كل شيء أن تكون جماهيرية من حيث التوجيه والمواقف والاهتمامات والطروحات ، أي أن تكون تحاليلها ومواقفها تعكس الاهتمامات الجماهيرية وتتجاوب معها . وغني عن الذكر أن الجانبين (الكمي والنوعي) يؤثران في بعضهما سلبا وإيجابا .

– **الديمقراطية**: إن توفير الشرط الأول (الجماهيرية) مرهون بتوفير الديمقراطية داخل الإطار الجماهيري المعني. ففي غياب الديمقراطية في العلاقات بين مناضلي الإطار أو بين أجهزته وقواعدها أو بين الإطار نفسه والجماهير التي يتوجه إليها ، يصعب توفير نفوذ وتأثير جماهيريين واسعين . ذلك أن الإجابة على أوضاع الجماهير وحاجياتها يستلزم بالضرورة مساهمتها في التوجيه والتقرير والتنفيذ مساهمة واعية وفعالة. وهذا ما يوفر للتنظيم الجماهيري ديناميكيته وحيويته . ومن جانب آخر، فإن ممارسة الديمقراطية الداخلية هي التي تجسد الاختيارات الديمقراطية على مستوى التوجيه وتعكسها في الممارسة اليومية من خلال إعطاء وصياغة بديل فعلي ملموس لعلاقات التسلط والاستبداد السائد في المجتمع.

– **الاستقلالية**: وهذا المبدأ يعني استقلالية الإطار الجماهيري في رسم توجيهاته وفي اتخاذ قراراته داخل أجهزته ووفق المسطرة الديمقراطية التي يسير عليها. فالاستقلالية لا تعني الاستقلالية أي الانعزال عن الصراع الدائر في المجتمع وعن قضاياها . إن مضمون هذا المبدأ يتلخص في أن قرارات وتوجيهات منظمة جماهيرية معينة هي ملكها ولا تخضع لأي ضغط خارجي عنها يحاول إسقاط هذه القرارات بشكل تسلطي عليها أي قرارات يتم إنصاجها واتخاذها ديمقراطيا في إطار هياكلها الداخلية .

– **التقدمية** : بمعنى الالتزام المبدئي والعملي بقضايا ونضالات الجماهير الكادحة في صراعها ضد أعداء التقدم والحرية . إن العمل الجماهيري بدون طابعه التقدمي يفقد أدنى مبرر للوجود بل يضع نفسه مباشرة في خندق أعداء الجماهير الشعبية، إذ مرة أخرى لا مجال ممكن للحيداء في ظل الصراع الطبقي المحتدم دوما. وتجب الإشارة هنا إلى ضرورة تلافي الانزلاق في المفاهيم المتطرفة (يسراوية أو يمينية) التي تستعمل التقدمية كمبرر للتبشير السياسي الرخيص أو لإيقاع الإطارات الجماهيرية في مواقع ذيلية أو كأوراق لأطروحاتها السياسية واستعراض عضلاتها المهترئة .

إن المبادئ الأربعة السالفة الذكر ، يجب أن تؤخذ كمبادئ مترابطة ومتداخلة ، أي أنها تشكل كلاً لا يتجزأ . فلا معنى لأحدها في غياب أخرى ولا إمكان لوجودها في غياب أحدها. إن هذه المبادئ هي التي تجعل مع العمل الجماهيري عملاً هادفاً ومؤثراً في مجرى الصراع الذي تخوضه الجماهير ضد أعدائها الطبقيين.

3- الحزب الثوري والعمل الجماهيري

أ- يجسد الحزب الثوري ، الأداة النضالية التي تمحور نضالات الجماهير الشعبية التي لها مصلحة في التغيير الجذري للمجتمع بقيادة طليعتها الطبقة العاملة . هذه الأداة تنبني على تصور إيديولوجي وسياسي وتنظيمي متكامل للبديل الثوري للمجتمع والأوضاع الراهنة ، وذلك من خلال سيرورة طويلة ومعقدة توجهها إيديولوجية الطبقة العاملة وتجسدها ممارسة نضالية يومية سياسية وتنظيمية وفق هذه الإيديولوجية . فالحزب لكي يكون أداة ثورية فعلاً لا بد له من التسليح بالنظرية الثورية ومن بناء نفسه تنظيمياً وإيديولوجياً وسياسياً في آن واحد حتى يكون قادراً على قيادة نضال الطبقات التي لها مصلحة في التغيير ، نحو تصفية أوضاع الهيمنة والتبعية والاستغلال وبناء المجتمع الاشتراكي. وتشكل الطليعة الثورية للطبقة العاملة العمود الفقري للحزب الثوري ، باعتبار هذه الطبقة هي المهية بحكم موقعها في الإنتاج ودورها فيه ، لقيادة التغيير إلى مداه الأقصى أي بناء المجتمع الخالي من أي لون من ألوان الاستغلال الطبقي .

من خلال ما تقدم ، يتبين أن الحزب يمتلك أو يجب أن يمتلك مشروعاً كاملاً ومتكاملاً للمجتمع الجديد يقود على أساسه نضالات الكادحين على كل المستويات وفي كل الواجهات . وهذا يعني أن التمايز الرئيسي بين الحزب والمنظمات الجماهيرية يكمن في شمولية التحليل والتصور والبدائل بالنسبة للحزب وبالتالي شمولية مجالات العمل النضالي وطرقه وأساليبه، في حين إن المنظمات الجماهيرية يبقى محور اهتماماتها الرئيسي ومحور نضالاتها اليومية محصوراً في قطاع أو عدة قطاعات معينة من المجتمع . هذا الحصر لا يعني جانب الكم فقط بل يعني كذلك الجانب الكيفي من حيث محدودية الشعارات التعبوية والطابع المطلبي الغالب بالضرورة عليها. التمايز الثاني بين الحزب والمنظمات الجماهيرية يتجسد في الفرق بين الانتماء الحزبي والانتماء الجماهيري (نقابي أو جمعي) فإذا كان الانتماء الحزبي يقي التنبني الواضح والكامل لإيديولوجية الحزب وخطه السياسي والانضباط الصارم لمقاييسه وهيكلته التنظيمية ، فإن الانتماء الجماهيري لا يتعدى حدود الالتزام بالمبادئ الدنيا للمنظمة الجماهيرية وبخطها العام. وهذا الالتزام لا يتناقض ولا ينفي إمكانية الاختلافات الإيديولوجية وتعدد الانتماءات السياسية أو انعدامها داخل المنظمة الجماهيرية. التميز الثالث بين الاثنين، يتعلق باختلاف موقع ودور كل منهما في الصراع الطبقي وعملية التغيير. فشمولية التصور والعمل بالنسبة للحزب وقيامه على أساس من وحدة الفكر داخله ومن انسجم طبقاً في بنيته التنظيمية مع خياره الإيديولوجي ، هي العوامل التي تؤهل الحزب لقيادة الصراع ضد الطبقات السائدة باعتباره التنظيم الطلائعي للطبقة العاملة ، وغياب هذه العوامل ، كما هو واضح ، بالنسبة للمنظمة الجماهيرية هو الذي يجعل دورها في الصراع الطبقي دوراً ثانوياً بالنسبة لدور الحزب غير أن كونه ثانوياً بالنسبة لدور الحزب لا يقلل في شيء من أهمية تأثيره وقوته بالنسبة لمجرى الصراع الطبقي ، أي أن هذا التمايز لا يعني أكثر من أن قيادة الصراع الطبقي هي مهمة التنظيم الثوري الطلائعي . وهي مهمة تتجاوز بكثير حجم وطاقت المنظمة الجماهيرية.

ب- من الواضح أنه مهما كانت ثورية الفكر الذي يحمله الحزب ويشغل في ضوئه، فإن انعدام التجذر والارتباط بالجماهير، يجعل منه في نهاية المطاف مجرد تجمع نخبة من الثوريين عاجزة ، مهما كان حسن نواياها ، عن التأثير في مجرى الأحداث ، فبالأحرى التحكم فيها. من هنا

يشكل العمل الجماهيري قناة أساسية بالنسبة للحزب للارتباط بالجماهير والتجدر في صفوفها. ونعني هنا العمل الجماهيري بمعناه وأشكاله الواسعة . فمن خلال العمل الجماهيري يتمكن الحزب من :

- تجديد تواجده وسط الجماهير بالنضال اليومي معها ولأجلها .
- تعميق تصورات وأطروحاته من خلال هذا الاحتكاك وهذه المعاناة.
- الرفع من مستوى وعي الجماهير وتعميق التزامها النضالي .
- جلب وتوسيع العطف على الحزب واستقطاب طاقات نضالية جديدة لصفوفه.
- اخذ المواقع الطليعية في نضالات الجماهير من اجل قيادتها في إطار صراعها المشروع ضد الطبقات السائدة .

تمريس مناضليه على العمل في صفوف الجماهير وصقل وعيهم وتنمية تجاربهم. من خلال هذه النقاط المركزة تبرز أهمية العمل الجماهيري وحيويته بالنسبة للحزب، كمجال أساسي لتلافي الانزواء والتفوق من جهة وكشرط لتحقيق الهوية الثورية للحزب من جهة ثانية.

من الضروري أن يعمل الحزب على اخذ المواقع القيادية في العمل الجماهيري ليس كهدف في حد ذاته ولا بالتسلط البيروقراطي على المنظمات الجماهيرية ومحاولة إرجاعها مجرد ذيل للحزب يتلقى تعليماته من فوق ويطبقها في طاعة عمياء. ذلك أن هذا الفهم والأساليب المترتبة عنه لا يؤدي في النهاية إلا إلى شل دينامية المنظمات الجماهيرية وعزلها عن جماهيرها . إن قيادة الحزب للعمل الجماهيري يجب أن تتم من خلال التأثير والإقناع داخل هذه المنظمات الجماهيرية نفسها ومن خلال كسب ثقة الجماهير لمناضلي الحزب عبر نضالية هؤلاء وتفانيهم في العمل . أي أن اخذ المواقع القيادية في العمل الجماهيري يكتسب عبر النضال ولا يفرض فرضاً. كما أن الاستمرار في هذه المواقع لا يتأتى إلا من خلال ديناميكية المنظمات الجماهيرية والتأثير فيها باحترام استقلاليتها وسيرها الديمقراطي. ومن هنا يمكن القول أن العمل الجماهيري كممارسة ملموسة يشكل محك اختيار دائم لأطروحات الحزب ومدى انسجام ممارسة مناضليه معها .

4- أساليب وطرق الممارسة الجماهيرية

ليست هناك وصفات جاهزة حول أساليب وطرق الممارسة النضالية الجماهيرية ذلك أن هذه المسألة تكتسب عبر الممارسة نفسها ومن خلال الاستفادة من التعثرات والأخطاء التي تفرزها التجربة الحية، غير أن هناك حدا أدنى من الضوابط يوجه هذه الممارسة اليومية ، هذه الضوابط يحددها مفهوم العمل الجماهيري نفسه والمبادئ التي تتحكم في توجيهه . أول هذه الضوابط، هو أن طبيعة الممارسة النضالية الجماهيرية تحددها طبيعة المنظمة الجماهيرية نفسها، أي أنها كممارسة يجب أن تخضع بالضرورة لتوجيه هذه المنظمة ومقاييسها التنظيمية ويجب فوق هذا وذاك أن تراعى الطاقات الحقيقية وحجمها. فلا يمكن أن نتصور مثلاً أن تلعب الجمعيات مهما كان وزنها وحجمها دور النقابات أو تحمّل هذه الأخيرة نفسها شعارات لا تراعي الظرف التاريخي العيني الذي تجتازه ولا إمكانياتها الحقيقية. ثاني هذه الضوابط، يكمن في ضرورة احترام استقلالية المنظمات الجماهيرية أي في ضرورة نضج القرارات واتخاذها داخل هذه المنظمات نفسها وليس فرضها بكل تعسفي. ثالث هذه الضوابط، هو الحرص الدائم على إشراك أوسع قدر ممكن من القواعد في التوجيه والتخطيط والتنفيذ كضمانة أساسية للحيلولة دون أمراض التشخيص والزعامات أو التفوق. رابع هذه الضوابط، هو الديناميكية النضالية بمعنى تشجيع روح المبادرة على كل المستويات. فبدون هذه الروح لا يمكن تصور عمل جماهيري ، فلا جماهيرية ممكنة دون ديناميكية نضالية مستمرة. خامس هذه الضوابط هو أن المناضلين الحزبيين يجب أن يكونوا سباقين من حيث الممارسة والمبادرة والانضباط والعطاء النضالي ، كشرط لتوفير مصداقية فعلية لأطروحات الحزب وممارساته.